كثير: كان يذاكر بشيء من التاريخ ويحفظ شعراً كثيراً. وكان قد أثرى من كثرة ما أخذ من الناس بسبب المديح والهجاء، وكان الناس يخافون منه لبذاءة لسانه.

(٥٣٦)

(مُحمَّدُ بن يُوسُف بن عليّ بن يُوسُف الغَرْنَاطي أثير الدين أبو حيَّان الأندلسي)[1]

الإمام الكبير في العربية والتفسير. ولد أواخر شوَّال سنة ٦٥٤ أربع وخمسين وستمائة، وتلا القراءات إفراداً وجمعاً على مشايخ الأندلس، وسمع الكثير بها وبأفريقيا، ثم قدم الإسكندرية ومصر، ولازم ابن النحَّاس، ومن مشايخه الوجيه بن الدهّان، والقطب القَسْطَلاني، وابن الأنماطي وغيرهم، حتى قال: إن عدة من أخذ عنهم أربعمائة وخمسون شخصاً. وأما من أجاز له فكثير جدّاً. وتبحّر في اللغة والعربية والتفسير، وفاق الأقران وتفرّد بذلك في جميع أقطار الدنيا، ولم يكن بعصره من يماثله، قال الصفدي: لم أره قطّ إلّا يسمع أو يشتغل أو يكتب أو ينظر في كتاب، ولم أره على غير ذلك. وكان له إقبال على أذكياء الطلبة يُعظِّمُهم وينوّه بقدرهم. وكان كثير النظم ثبتاً فيما ينقله، عارفاً باللغة. وأما النحو والتصريف فهو الإمام المطلق فيهما، خدم هذا الفنّ أكثر عمره حتى صار لا يذكر أحد في أقطار الأرض فيها غيره. وله اليد الطولى في التفسير والحديث وتراجم الناس ومعرفة طبقاتهم خصوصاً المغاربة. وله التصانيف التي سارت في آفاق الأرض واشتهرت في حياته، وأخذ الناس عنه طبقةً بعد طبقةً حتى صار تلاميذه أئمة وأشياخاً في حياته. وهو الذي رغب الناس إلى قراءة كتب ابن مالك، وشرح لهم غامضها، وكان يقول: إن مقدمة ابن الحاجب نحو الفقهاء، وألزم نفسه أن لا يقرئ أحداً إلَّا في كتب سيبويه أو في التسهيل أو في مصنفاته. وكان هذا دأبه في آخر أيامه. ومن مصنفاته (البحر المحيط) في التفسير وغريب القرآن في مجلد، و(الأسفار الملخص من كتاب الصغار)، وشرح (التسهيل) و(التذكرة)، و(الموفور)، و(التذكير)، و(المبدع)، و(التقريب) و(التدريب)، و(غاية الإحسان بالنكت الحسان)، و(الشذى في مسألة كذا)، و(اللمحة)، و(الشذرة)، و(الارتضاء)، و(عقد اللآلي)، و(نكت الإملاء)، و(النافع)،

(١) ترجمته في: الدرر الكامنة: ٤/ ٣٠٢؛ فوات الوفيات: ٢/ ٢٨٢؛ النجوم الزاهرة: ١٠/ ١١١؛ بغية الوعاة: ١٢١؛ شذرات الذهب: ٦/ ١٤٥؛ كشف الظنون: ٤٩، ٦٨٨، ١٨٦٤؛ إيضاح المكنون ١١/ ٢٤، ١٠١؛ هدية العارفين: ٢/ ١٥٢؛ معجم المؤلفين: ١٢/ ١٣٠؛ الأعلام: ٧/ ١٥٢.

و(المورد الغمر)، و(الروض الباسم)، و(المزن الهامر)، و(الرمزة)، و(غاية المطلوب)، و(النير الجلي)، و(الوهاج مختصر المنهاج)، و(الأمر الأحلى في اختصار المحلى)، و(الإعلام) و(يواقيت السحر)، و(تحفة السندس في نحاة الأندلس)، (الإدراك للسان الأتراك)، و(منطق الخرس بلسان الفرس)، و(نور الغيش في لسان الجيش)، و(مسك الرشد)، و(منهج السالك)، و(نهاية الإعراب)، و(خلاصة التبيان)، وغير ذلك مما حكاه ابن حَجَر في الدُّرر، منقولاً من خط صاحب الترجمة. ومما لم يُذكر (النهر الماد) في التفسير، وهو مختصر البحر المحيط المتقدم ذكره، قال ابن الخطيب: كان سبب رحلته عن غَرْنَاطة أنها حملته حدّة الشباب على التعرض للأستاذ أبي جَعْفَر بن الطبَّاع، وقد وقعت بينه وبين أستاذه أبي جَعْفَر بن الزبير وحشة، فنال منه، وتصدّى للتأليف في الردّ عليه، فرفع أمره إلى السلطان بِغَرْنَاطة فانتصر له وأمر بإحضار صاحب الترجمة وتنكيله فاختفى، ثم لحق بالمشرق، وحضر مجلس الشيخ شمس الدين الأصبهاني وكان ظاهرياً، وبعد ذلك انتمى إلى الشافعي. وكان أبو البقاء يقول: إنه لم يزل ظاهرياً. قال ابن حَجَر: كان أبو حيَّان يقول: محال أن يرجع عن مذهب الظاهر من علق بذهنه. انتهى. ولقد صدق في مقاله، فمذهب الظاهر هو أول الفكر آخر العمل عند من منح الإنصاف. ولم يرد على فطرته ما يغيرها عن أصلها، وليس وهو مذهب داود الظاهري وأتباعه فقط، بل هو مذهب أكابر العلماء المتقيدين بنصوص الشرع من عصر الصحابة إلى الآن، وداود واحد منهم، وإنما اشتهر عنه الجمود في مسائل وقف فيها على الظاهر حيث لا ينبغي الوقوف، وأَهمل من أنواع القياس ما لا ينبغي لمنصف إهماله. وبالجملة فمذهب الظاهر وهو العمل بظاهر الكتاب والسُّنَّة بجميع الدلالات وطرح التعويل على محض الرأي الذي لا يرجع إليهما بوجه من وجوه الدلالة. وأنت إذا أَمْعَنْتَ النظر في مقالات أكابر المجتهدين المشتغلين بالأدلة وجدتها من مذهب الظاهر بعينه، بل إذا رُزقت الإنصاف وعرفت العلوم الاجتهادية كما ينبغي، ونظرت في علوم الكتاب والسُّنَّة حق النظر كنت ظاهرياً، أي عاملاً بظاهر الشرع منسوباً إليه لا إلى داود الظاهري. فإن نسبتك ونسبته إلى الظاهر متفقة. وهذه النسبة هي مساوية للنسبة إلى الإيمان والإسلام، وإلى خاتم الرسل عليه أفضل الصلوات والتسليم. وإلى مذهب الظاهر بالمعنى الذي أوضحناه أشار ابن حَزْم بقوله: [من الطويل]

وما أنا إلّا ظاهريٌّ وإنّني ... على ما بَدَا حتّى يَقُومَ دليلُ

وتصانيف صاحب الترجمة تزيد على الخمسين، ومنها منظومة في القراءات على وزن الشاطبية بغير رموز، وفيها فوائد، ولكنها لم ترزق حظ الشاطبية. وكان عرياً من

الفلسفة والاعتزال والتجسيم، على نمط السلف الصالح، كثير الخشوع والتلاوة والعبادة، مائلاً إلى محبة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب كرَّم اللَّه وجهه، متجافياً عن مقاتليه، قال الأدفوئي: جرى على طريقه كثير من النجاة في حبّ عليّ حتى قال مرّة لبدر الدين بن جماعة: قد رُوي عن علي بن أبي طالب كرّم اللَّه وجهه: قال: عهد إليّ النبي ﷺ لا يُحبني إلَّا مُؤمنٌ ولا يُبغضني إلّا مُنافق، هل صدق في هذه الرواية، فقال له ابن جماعة: نعم، قال: والذين قاتلوه وسلّوا السيوف في وجهه كانوا يحبونه أو يبغضونه؟ وكان يجري على مذهب أهل الأدب في الميل إلى محاسن الشباب، وهو مشهور بالبخل، حتى كان يفتخر به كما يفتخر الناس بالكرم، وأضرّ قبل موته بقليل، (ومات) في ثامن صفر سنة ٧٤٥ خمس وأربعين وسبعمائة، وله شعر فمنه: [من السريع]

رَاضَ حبيبي عَارضٌ قَدْ بدا ... يا حُسْنَهُ مِنْ عارضٍ رَائضِ[١]

وَظَنّ قومٌ أنَّ قلبي سَلَا ... والأصل لا يَعْتدُّ بالعارضِ[٢]

ومن شعره: [من الطويل]

عدايَ لَهُم فَضْلٌ عليّ ومِنَّةٌ ... فَلا صَرَفَ الرَّحمنُ عنِّي الأَعاديا

هُم بحثوا عنْ زلّتي فاجْتنَبْتُها ... وَهُم نَافَسُوني فاكتسبتُ المعَاليا[٣]

ومن شعره المشعر ببخله: [من الطويل]

رَجاؤُكَ فلساً قَدْ غدا في حَبائلي ... قَنيصاً رجاءً للنتاجِ منَ العُقْمِ[٤]

أأتعبُ في تحصيلهِ وأُضيعُهُ ... إذا كُنت مُعتاضاً من البرءِ بالسّقمِ

٥٣٧

(مُحمَّدُ بن يُوسُف بن عَليّ الكَرْمَاني ثم البغدادي)[٥]

ولد في جمادى الآخرة سنة ٧١٧ سبع عشرة وسبعمائة، وأخذ عن جماعة ببلده، ثم ارتحل إلى الشيراز، وأخذ عن القاضي عضد الدين ولازمه اثنتي عشرة

(١) راض: رَوَّضَ: ذَلَّلَ. العارض: جانب الوجه، أو صفحة الخَدِّ، أو صفحة العُنق.

(٢) سَلَاهُ سُلُوّاً، وسُلِيّاً، وسُلْواناً: نَسِيَهُ وطابت نفسه بفراقه.

(٣) الزّلَّةُ: السقطة، أو الخطأ. نافسه: باراه.

(٤) الحبائل: الشباك، المصائد. القنيصُ: المَصِيدُ.

(٥) ترجمته في: بغية الوعاة: ١٢٠؛ كشف الظنون: ٣٧، ١٦٦٢؛ الدرر الكامنة: ٤/ ٣١٠؛ هدية العارفين: ٢/ ١٧٢؛ معجم المؤلفين: ١٢/ ١٢٩؛ الأعلام: ٧/ ١٥٣.